

فَكَاهَات

زَقَانِيَّة

— ضريح الحبيبين —

في الجنوب الشرقي من فرنسا ديرٌ قديم للراهبات يدعى دير أمابرج وهو قائمٌ في وسط بقعةٍ فسيحةٍ من ارضٍ غير مأهولة تحيط به حديقةٌ غناء من اجل ما رتبته يد الانسان واقربه مشابهة للطبيعة وكان هذا الدير مطلاً على بحر بيسكي من الجهة الواحدة ومن جهاته الثلاث على صحاري واسعة لا يكاد يُرى فيها بناءٌ واحد

واشتهرت راهبات هذا الدير بالفضيلة والتقوى وكان معظمهن من الفتيات الغنيات ومن اشهر الأسر الفرنسية دفعهن الزهد في اباطيل العالم ومجده الفاني الى التنسك والانقطاع للعبادة فاحتشدن في تلك البقعة يقطعن معظم اوقاتهم في الادعية والصلوات ويصرفن ما بقي منها في اعمال البر من تجهيز ثياب لاولاد الفقراء او اعمال يدوية يرسلنها في آخر كل سنة الى باريز حيث تباع باثمانٍ وافية وتنفق قيمها في الصدقة على البائسين او يوفدن من قبلهن وفوداً تصحب العساكر في مواقع الحروب لمداواة الجرحى والتخفيف من آلامهم

وفي ذات يوم قرع باب الدير المذكور فبادرت الراهبات الى غرزة
الرئيسة وقد اخذ منهن العجب كل مأخذ لعلهن ان ديرهن لا يزار وليس
على سكة عمومية ليأوي اليه تائه او متشرد فاسرعت الرئيسة الى صليب
من العاج فحملته بيدها وسارت وتبعتها الراهبات بكجيش من الملائكة حتى
بلغت الباب وكان الزائر لا يزال يقرع بالحاح ففتحت الباب الخارجي واذا
بشخص ملتب برداء اسود قد وثب الى الداخل وتبينت الراهبات ان
الزائر قد اتى ماشياً ولا رفيق معه فتعجبن من امره ثم اغلقت الباب
وعدن بالزائر الى داخل الدير . ولما استوى بالجميع المقام خلع الزائر رداءه
الاسود فبرز من تحته عادة بل حورية من الحور العين في مقبل الصبوة
بقدر كالباب ووجه كالبدر وقد انسدل على ظهرها شعرها الحالك فبلغ
اقدامها وكان يطفح على محياها ماء الجمال ويتدفق من عينيها نور ومن
خديها نار بل كان في كل جراحة من حسنها قر . فدهشت الراهبات
لهذا المنظر الغريب وخلصن من ملائكة السماء تدبطن اليرن لتشاركون
في عيشته الهنيئة . اما الرئيسة فتقدمت الى الزنابة وصاحتها قائلة اهلاً
بك ومرحباً ايها الفتاة ولكن هل لك ان تبردي غليل شوقنا بان تخبرينا
من انت وما تقصدين من محبتك في مثل هذا الوقت وانت وحيدة في
اجتيازك هذه القفار المخيفة لا يحرسك حارس ولا يرافقك احد . وراة
الزنابة من حديث الرئيسة وهيئتها ما سكن روعها فتهدت وقالت

انني يا امأه قد اخترت العيشة في انحاء باريز فوجدتها شقاء وعذاباً
مستمراً وطالما كنت اتوق الى الابتعاد عنها والانفراد لعبادة العزة الالهية

وقد رأيت من شرور الناس وخبت ضماثرهم وسوء افعالهم ما كان يزيدني نفوراً منهم ورغبةً في الانقطاع عنهم حتى علمت بمقامكن فوطنت النفس على المجيء اليكن ومشاطرتكن هذه الحياة الطاهرة . اما اجتيازي هذه القفار وحدي فقد كانت ترافقني فيها عينا الله وتحرسني عنايته فلم يصنبي ادنى سوء . وقد احضرت معي بعض النعود والحلى المختصة بي وهي ملكي وهما نذا اقدمها لك يا اماء لتضيفها الى مال الدير وهي وان تكن قليلة فانها جميع ما املك ولا اظنها ثقل عن فلسي الارملة فهل لك ان تقبليني في عداد بناتك وتكوني امّاً لي

وكان في كلام الفتاة سحرٌ وفي نطقها كهربائيةٌ فجذبت قلوب الراهبات اليها فاحببنها من تلك الدقيقة حباً شديداً ولم يكن ميل الرئيسة اليها اقل من ميل الراهبات فضمتها الى صدرها وقالت لا بدّ قبل ان اجيبك على سؤالك من طرح بعض الاسئلة عليك فهل تجيبيني عنها . قالت نعم يا اماء اجيبك بقدر ما استطيعه . فقالت الرئيسة اخبرينا اولاً ما هو اسمك . فقالت اسمي لندا واما اسم أُسرتي فانها من الأسر الشريفة في فرنسا غير اني نسيتُه منذ دخلت باب هذا الدير فهل تختارين لي اسماً جديداً او تكتفين باسم لندا فاني افضل ان لا غيره . قالت الرئيسة لا بأس فليكن اسمك لندا ولكن هل كان مجيئك الينا برضى والديك . قالت لا... وانما اقسم لك يا اماء انني لم افعل بمجيئي ما يوجبني عليه ضميري ولا ما يغيظ الله مني . قالت وهل حدث من عهد قريب حادثٌ كان سبباً لمجيئك الى هنا . قالت لا ولكني من زمنٍ طويل كان في نفسي ان اقضي حياتي

في مثل هذه العيشة وكانت الايام تزيدني رغبةً فيها . قالت وهل انتِ
عذراء . فصبغ الدم وجنتي لندا وزاد خفقان قلبها وسقطت الدموع الزيرة
من عينيها فانها لم تكن تتوقع مثل هذا السؤال وهي آية العفاف والطهر
ثم تمت بصوتٍ قد خنقه الحياء فقالت نعم يا امام

وتأثرت الرئيسة فندمت على سؤالها ثم قالت كفى يا ابنتي فانتِ عندي
اعز من روعي . ثم التفتت الى احدى الاخوات وقالت خذي هذه الاخت
يا مرغريت الى غرفة تليق بها ووفري لها اسباب الراحة فانها ولا بد قد
تعبت من طول السفر . فشكرت لندا وخرجت بصحبة مرغريت وكانت
مرغريت قد احبت لندا حباً يفوق التصور فما صدقت ان وكل اليها
الاعتناء بها فاخذتها الى غرفةٍ فسيحة بجانب غرفتها وبعد ان جهزت لها
لوازمها قبلتها وتركها . ولما استقرت باندا المقام نهضت فغيرت ثيابها وغسلت
عنها غبار السفر وعوضاً عن ان تستريح جلست على سريرها ثم اخرجت
من صدرها صحيفةً وصورة فجعلت تقرأ الصحيفة وتنظر الى الصورة ودموعها
تتحدّر على خديها تحدر الطل على الزهر . ثم عادت فاخفت الصحيفة والصورة
وغسلت وجهها ورتبت ملابسها وخرجت الى المعبد وكان وقت الصلاة
والراهبات يدخلن بترتيب فدخلت معهن وقدمت هنالك صلاة حارة
كان يشهد لها فيها شخوص بصرها الى السماء وتهنئنها من قلب جريح

.

وبعد ايام اجتمعت رئيسة الدير باحدى راهبات وجرى بينهما حديث
لندا وذكر محاسن صفاتها فاخذت الراهبة تثني عليها ثناءً طويلاً لما ظهر

منها من الورع والصلاح وما في اخلاقها من اللطف والرفقة ثم قالت وهي من اكثرنا مواظبةً على الشغل حتى انها كثيراً ما تشاظرنا اعمالنا فلا تكاد تُرى جالسةً ولا متفرغة عن عملٍ تتشاغل به وهي مع ذلك كله ساكنة لا تنبس ببنت شفة . فقالت الرئيسة الذي يظهر لي انه لا بد لها من حديثٍ ولكنها لا تشاء ان تذكر ماضيها ولا اجراً انا ان اسألها فهل لمحت احداً كن شيئاً من ذلك . قالت اني لم اسمعها تذكر شيئاً من ماضي حياتها ولا لمحت منها علامةً تدل على شيءٍ منه وإنما اذكر انها يوم قصت شعرها طلبت ان تبقى في غرفتها ولا يزال عندها

وبقيت لندا على الحالة التي وصفناها الى نهاية السنة ثم اخذت صحتها تتغير وجسمها يضعف وكانت لا تذكر ذلك ولا تخفف من شغلها اليومي حتى اخذت قوتها في الانحطاط الى ان اضطرت الى لزوم الفراش وكانت الرئيسة والاخوات يبذلن كل ما في وسعهن لشفائها فلم يجد ذلك نفعاً بل كانت حالتها تزداد شقاءً من يوم الى آخر وهي لا تزال باسمه الشجر منهلة الوجه يتدفق منه نور الجمال . وبقيت لندا ملقاة في الفراش نحو شهرٍ او اكثر وكانت مرغريت لا تفارق سريرها لا نهاراً ولا ليلاً . وفي ذات يوم اشتد مرض لندا وشعرت بدنو اجلها فنادت مرغريت وقالت لها انني اشعر باقترابي الى باب الديار التي لا راحة لي الا فيها . وقد جئتكم غريبةً وقضيت بينكم كل هذه المدة من دون ان تعرف واحدة منكم عني شيئاً ولم يكن من الواجب ان اطلعكم على ماضي حياتي غير انني رأيت من حبك لي واخلاصك في مودتي وتشوقك الى معرفتي ما يدفعني الى ان

ابوح لك بسرّي فاسمعي وانسي ما اقول

اني قد ربيت مع اختي لي في بيت نعيم وكان والدي من المتقدمين في وظائف الحكومة فكنا في بمبوحة العيش والسعادة ولما توفي والدي ترك لوالدي اموالاً طائلة وغنى وافراً فربتنا احسن تربية في اشهر المدارس فلم يكن يعوزنا شيء . وكنت في اوقات فراغي اطالع الروايات والقصص فلم اكن اقرأ او اسمع حديثاً غرامياً الا واره محاطاً بالشدائد والنصوص فنفرت من الحب وآليت على نفسي ان لا اسمح لقلبي ان يتعلق برجل ووطئت النفس على ان اقضي حياتي مع والدي اتمتع بالحياة بدون شريك . ومن مدة سنتين - اجل من سنتين من مثل تاريخ هذا النهار - ذهبت مع والدي وشقيقتي لزيارة صديقة لنا في قرسايل فصادفنا عندها فتى يدعى كاميل . ولا حاجة الى الاطالة في وصفه ولكني اقول لك اني مع كل اصراري على عزمي ونفوري من الميل والهوى لم اتمكن من كبح جماح فؤادي ولم اقوَ على منع قلبي من التطوع اسلطان الهوى فانقدت لداعي الزام واخذ حب كاميل يزداد فيّ يومياً حتى ظهر اخيراً لوالدي . فلما علمت به ارغت وازبدت واسمعتني ما لم يخطر لي ببال والسبب في ذلك ان كاميل مع كونه من اسرة لا تخطط عن اسرتنا شرفاً وغنى فان اسرته كانت من الحزب الملكي فلما قامت ثورة الجمهورية وقتلت الاغنياء وسلبت اموالهم كان والدا كاميل واملاكه من جملة الضحايا التي ذهبت في ذلك الحين واصبح كاميل فقيراً مع كونه شريفاً . ولذلك كانت والدي ترجرنني عن هواه وتقول لن اسمح لك ان تقترني بهذا الفقير المهمل واجتهدت ان

اقنعها بان ما لدي من المال يكتفي واياء وانه في مستقبل الشباب وامامه
 ابواب المستقبل وسلم النجاح واطهرت لها جميع ما يصوره لي الحب من
 الآمال فلم تلن ولم ترحم بل زاد نفورها منه ثم مني فكانت تكرهني
 وتكرهني على ان انساه او تنبذني . وعرف كاميل ذلك فكان كسوس
 ينخر فؤاده فجعل يدأب في تحصيل مقام رفيع وبسطة من الغنى ولكن
 واسفاه لم يسعده الدهر وكان الحزب الملكي لا يزال مكسور الشوكة فلم
 يتوفق في متسنائه . اما انا فكنت اجلس الليالي الطوال اندب بنحني والحياة
 المرأة التي يقضيها الانسان على وجه الارض . وفي تلك الاثناء تزوجت
 شقيقتي بشاب اختارته لها والدتي وكانت تظهر لها المحبة والحنو وتظهر لي
 القسوة والغلظة فكانها كانت تدس السم في كأس شبابي . ولما ضاقت بنا
 الحال عزم كاميل على اختطافي والهرب بي فاتي يوماً الى غرفتي سرا واطلعتني
 على مقصده فابيت موافقة خوفاً من العار ولكنني اقتنعت اخيراً وقبل
 ان نخرج من البيت علمت به والدتي فنادت الخدم واتهمته بالاصوصية
 فسلموه الى الشرط وقادوه الى السجن . وعبثاً كنت احاول ان احرك
 شفقة والدتي واطلب له العفو فلا تزداد الا اصراراً حتى كرهت الحياة بين
 الناس لاني لم ارم الا ذئاباً خاطفة في ثياب الحملان ووحوشاً ضارية في
 هيئة البشر وصممت على الاتقطاع عن العالم وهكذا فعلت وجئت الى هنا .
 ولم اشأ ان اغير اسمي لان كاميل كان لا يلذه الا سماع اسم لندا ولم
 افارق شعري لانه كان يحب النظر اليه ولم يكن لدي ما يذكرني به
 سوى هذه الصورة والرسالة وهما كل ما لدي منه . ولما جئت الدير عزمتم

ان انسى كل ماضي وصمت على ذلك غير اني كنت ارى في الايقونة صورته واسمع في جرس الكنيسة صوته واتمثل في منامي شبحه ويظهر ان حبه قد تملكني ملكاً ليس في سلطاتي التخلص منه الى ان اشرفت على هذه الحالة وانا شاعرة بدنو اجلي فدونك قصتي . ان هذا اليوم تذكر تاريخ معرفتي بكاميل وقد مضى على ذلك سنتان فكفى . . .

وكان الكلام والتهيج قد اثرا في لندا تأثيراً شديداً فالقت رأسها على الوسادة خائرة القوى ولما استراحت قليلاً نهضت ثانية وقالت لا لا . اني لا اطيق الحياة ولا اعلم اين هو او ما يقاسيه الآن . استحلفك بالله ايها الاخت مرغريت اذا مت ان تدفني هذه الصورة وهذه الرسالة معي اما شعري فاني اهبه لك تذكراً من المسكينة لندا . ثم اجفأت بنفثة كمن سمع صوتاً يناديه وصمتت هنيهة ثم تبسمت وقالت كاميل كاميل . ان لم يكن اجتماعي بك الا هناك فهآءذا ايها الحبيب . ثم سقطت على سريرها واسلمت الروح

في صباح اليوم الثاني قامت الراهبات بملابسن البيضآء وفرن بترتيب حاملات الصلبان والمباخر ينشدن نشيداً يشق تأثيره الصخور وهن بين زفير وعويل وفي وسطهن ست منهن قد حملن جثة لندا مكالةً بالازهار فحملنها الى وسط الحديقة حيث دفن جثتها واقفن لها لحداً من الرياحين والورود وجثون حول ضريحها للبكاء والصلاة عن نفسها

في صباح ذات يوم قرع باب الدير فتُح و إذا بالداخل فتى في عنفوان
الشباب مليح الهيئة بهيَّ طالعة غير أنه اصفر الوجه مكسور الطرف
حزين النفس منقبض الصدر ولما قابل الرئيسة استأذنها أولاً ثم سأها هل
قدمت الى ديرها فتاة تدعى لندا . فلم يلبظ هذا الاسم حتى تساقطت
دموع الرئيسة تساقط المطر واحتبس لسانها عن الكلام فاقتربت الاخت
مرغريت الى الغريب وقالت له هل انت كاميل . فقال نعم انا هو وهل
لندا هنا . . استحلقت بك بالله وبطهارة ساكنات هذا الدير ان تسي لي في
مقابلتها لحظة واحدة . فوضعت الاخت يدها على فخما مشيرة اليه بالسكوت
ثم امرته ان يتبعها فتبعها صامتاً وهو كمن في حلم فذهبت الى غرفتها واخذت
منها ضفيرة الشعر فدفعتها الى كاميل ثم سارت به الى الحديقة حتى بلغت
الضريح ف اشارت اليه بتمتعي المزن وقالت هي هنا منذ اول امس ثم
سقطت على ركبتيها واستخرطت في البكاء . اما كاميل فوقف هنيهة وهو
لا يدري اين هو ثم جعل يبدي اشارات كمن فقد عقله واخيراً عاد الى
هداه فاعول وبكى بكاءً شديداً ثم سقط على الضريح يقبل ترابه ويمطره
من دموعه ولم يزل كذلك حتى فاضت روحه فوق قبر حبيبته .

ولما اطلعت الرئيسة على جميع ما جرى سمحت — وهي المرة الاولى
والوحيدة — ان يخالف قانون الدير وتضم جثة كاميل الى بقايا لندا فدفنوه
بجانبا وكانت رئيسة دير أملمبرج وراهباته يأتين كل يوم بعد الصلاة الى
الضريح فيجدون ازهاره ويبكين الحبيبين ويصلين عن نفسيهما